الحياة التي لم تكن مضمونة

ألمانيا – نوفمبر 2021

في مكان ما من ألمانيا، في نوفمبر عام 2021، وصل شاب أخيراً إلى بلد كان يحلم بالوصول إليه منذ سنوات.

كان الناس من حوله يعيشون حياتهم بصورة طبيعية. يذهبون إلى أعمالهم، ويستقلون القطارات، ويتجولون في الشوارع، ويعودون إلى منازلهم دون أن يفكروا كثيراً في معنى الأمان.

لكن هذا الشاب لم تكن حياته تشبه حياة هؤلاء الناس.

فخلف وصوله إلى ألمانيا قصة طويلة، بدأت قبل ذلك بعشر سنوات، عندما كان طفلاً في سوريا.

قصة بدأت بمظاهرة سلمية، وانتهت برحلة عبور بين الدول والغابات والحدود.

خلال تلك السنوات، عاش القصف، وشاهد الموت، وفقد أخاه وأمه، وأصيب في الحرب، وفقد ثمانية من رفاقه، ومرّ بتجارب كان الموت فيها أقرب إليه من النجاة.

حاول الوصول إلى الأمان أكثر من مرة.

مشى ثلاثة عشر يوماً في الجبال، وأُعيد إلى تركيا.

اختبأ أربعة أيام داخل شاحنة، وعبر حدوداً عديدة.

هرب من الشرطة، وأصيب أثناء محاولات العبور، وتعرض للضرب، وقضى أياماً في البرد والجوع.

كان يبحث عن شيء واحد: مكان يستطيع فيه أن يعيش دون أن يخاف من الموت في اليوم التالي.

لكن كيف بدأت هذه الرحلة؟

ولماذا اضطر طفل سوري إلى أن يخوض كل هذه التجارب؟

للإجابة، يجب أن نعود إلى عام 2011.

الفصل الأول: 2011 – عندما خرج الأطفال إلى الشوارع

في عام 2011، بدأت الاحتجاجات الشعبية في سوريا.

خرج الناس إلى الشوارع مطالبين بالحرية والكرامة والتغيير، وكانت المظاهرات السلمية تنتشر في عدد من المدن والمناطق السورية.

كان هو في ذلك الوقت طفلاً.

لم يكن يعرف الكثير عن السياسة، لكنه كان يرى ما يحدث حوله، ويسمع هتافات الناس، ويشاهد تجمعاتهم.

وفي يوم من الأيام، قرر المشاركة في أول مظاهرة له.

خرج من المسجد بعد صلاة الجمعة، وانضم إلى مجموعة من المتظاهرين الذين كانوا يهتفون ضد الظلم الذي يتعرض له الناس في البلاد.

كانت المظاهرة تسير في الشوارع، وكان المشاركون يرفعون أصواتهم مطالبين بحقوقهم.

لم يقطع المتظاهرون سوى نحو أربعمئة متر.

لكن بعد هذه المسافة القصيرة، حدث ما لم يكن يتوقعه.

طوّقت قوات الأمن المظاهرة، وبدأت عمليات الاعتقال.

تحول الشارع إلى مكان مليء بالخوف والارتباك.

أصبح كل شخص يحاول العثور على طريق ينجو به من الاعتقال.

وسط تلك الفوضى، تمكن من الهرب بين أزقة المدينة.

كان يركض من شارع إلى آخر، محاولاً الابتعاد عن المكان قبل أن تصل إليه قوات الأمن.

نجا في ذلك اليوم.

لكنه لم يكن يعرف أن ما شاهده في تلك المظاهرة سيكون مجرد بداية لسنوات طويلة من الأحداث التي ستغير حياته بالكامل.

فالمظاهرات التي بدأت سلمية تحولت مع تصاعد الأحداث إلى مواجهات دامية، وأصبحت مناطق كثيرة تشهد إطلاق النار والاعتقالات والقصف، وسقط مدنيون تحت نيران الجيش والأجهزة الأمنية والدبابات.

لم يعد الأمر مجرد مظاهرات في الشوارع.

لقد بدأت مرحلة جديدة من تاريخ سوريا، مرحلة سيدفع ثمنها ملايين الناس.

الفصل الثاني: 2012 – المدينة التي أُجبر سكانها على مغادرتها

بعد نحو عام، تغيرت الأوضاع في المنطقة التي كان يعيش فيها بشكل كبير.

أصبحت المنطقة ساخنة عسكرياً، واشتدت المواجهات، ثم تدخل الجيش السوري، بما في ذلك قوات الفرقة 17 بحسب روايته.

لم يعد السكان يعيشون حياة طبيعية.

القصف والاشتباكات أصبحا جزءاً من يومهم، والخوف من العمليات العسكرية كان يرافقهم في كل لحظة.

ومع تصاعد العمليات، هُجّر جميع سكان المدينة، واضطر إلى مغادرتها مع بقية الأهالي.

كانت تلك واحدة من أولى المرات التي يضطر فيها إلى ترك منزله بسبب الحرب.

انتقل إلى الريف، معتقداً أن الابتعاد عن المدينة قد يوفر له ولعائلته بعض الأمان.

لكن القصف لم يتوقف.

كانت قذائف الجيش والطائرات تصل إلى المناطق الريفية أيضاً، ولم يعد هناك مكان مضمون للنجاة.

وفي إحدى الليالي الباردة، وتحت ضغط القصف العنيف، اضطر إلى مغادرة الريف والقرية التي كان يقيم فيها، وهي قرية كنسية بن عز، بحسب الاسم الذي يتذكره.

كانت مغادرة المكان ضرورة، وليست قراراً اتخذه بحثاً عن حياة أفضل.

كان يريد فقط الابتعاد عن القصف.

بعد ذلك، انتقل إلى دركوش، التي كانت قد تحررت في تلك الفترة.

لكن الانتقال من منطقة إلى أخرى لم يكن يعني انتهاء الخطر.
فالحرب كانت تلاحقه أينما ذهب.

الفصل الثالث: محطة الوقود التي تحولت إلى انفجار

في دركوش، حاول أن يعيش حياة طبيعية قدر الإمكان.
وفي أحد الأيام، ذهب إلى محطة وقود في قرية الزنبقية لتعبئة البنزين.
كان الأمر عادياً، مثل أي شخص يحتاج إلى الوقود لسيارته.
أنهى تعبئة البنزين وغادر المحطة.
وبعد خروجه، دخلت سيارة تابعة لتنظيم داعش إلى المكان، ثم فجّرت نفسها داخل محطة الوقود.
تحول المكان الذي كان يقف فيه قبل لحظات إلى موقع انفجار.
كان قد غادر قبل وقوع التفجير بقليل.
نجا مرة أخرى.
لم يكن هناك وقت طويل ليستوعب ما حدث.
ففي بلد يعيش الحرب، قد تكون المسافة بين الحياة والموت دقائق، وأحياناً ثوانٍ.
كان يمكن أن يكون داخل المحطة عندما وقع الانفجار.
كان يمكن أن تنتهي حياته هناك، أثناء أمر يومي بسيط، وهو تعبئة البنزين.
لكنّه خرج قبل وقوع الانفجار.
ومرة أخرى، استمر في النجاة.

الفصل الرابع: جديدة – عندما يصبح الموت جزءاً من الحياة اليومية

بعد ذلك، انتقل إلى منطقة حدودية تُعرف باسم جديدة، وهي منطقة مسيحية بحسب وصفه.

لكن الانتقال لم يضعه بعيداً عن الحرب.
كانت الطائرات الروسية لا تكاد تفارق سماء المنطقة، وكانت تقصفها بشكل يومي.
أصبح صوت الطائرات والقصف جزءاً من تفاصيل الحياة.
كان يستيقظ على أصوات الغارات، وينام وهو يعرف أن الطائرات قد تعود في أي لحظة.
ومع مرور الأيام، أصبح يرى نتائج القصف أمام عينيه.
كان يرى شخصاً خلال النهار، ثم يجد نفسه في الليل مضطراً إلى دفنه بعد مقتله.
الأشخاص الذين كان يراهم حوله أصبحوا يغيبون واحداً تلو الآخر.
الأماكن التي اعتاد المرور بها لم تعد كما كانت.
كان الموت يقترب من الجميع، ولم يعد أحد يعرف من سيكون التالي.
في تلك المنطقة، عاش أياماً كان ينجو فيها من الموت باستمرار.
وكان كل يوم يمر دون أن يُصاب فيه أو يُقتل بمثابة نجاة جديدة.
لكن الحياة وسط هذا الواقع لم تكن سهلة.
لقد شاهد ما يكفي من الموت والدمار، وأصبح يشعر أن عليه أن يفعل شيئاً بدلاً من البقاء وسط هذا الخطر المستمر.
وفي النهاية، قرر الالتحاق بمنظمة إنسانية تعمل في توزيع المساعدات والإغاثة.
لم يكن يعرف أن هذا القرار سيضعه لاحقاً في واحدة من أخطر التجارب التي عاشها.

الفصل الخامس: 2016 – العمل الإنساني في قلب الحرب

كان عمره في ذلك الوقت سبعة عشر عاماً.
عمل مع منظمة إنسانية في شمال سوريا، في مجال مرافقة فرق توزيع المساعدات وحمايتها أثناء نقل الإغاثة من الحدود إلى المناطق المستهدفة.
كانت مهمته مرافقة سيارات المساعدات، وحماية الفريق خلال عمليات التوزيع.
لم يكن الطريق سهلاً.

فالمناطق التي كانت تصل إليها المساعدات كانت تعيش أوضاعاً عسكرية معقدة، وكانت السيطرة عليها موزعة بين قوى مسلحة مختلفة.

كانت هناك مناطق يسيطر عليها تنظيم داعش، ومناطق تحت سيطرة فصائل من الجيش الحر، ومناطق توجد فيها قوات سوريا الديمقراطية، ومناطق أخرى خاضعة لسيطرة الجيش السوري.

كان التنقل بين هذه المناطق يحمل مخاطر كبيرة.

فالطريق الذي تسلكه سيارات المساعدات قد يتحول في أي لحظة إلى ساحة اشتباك.

ورغم صغر سنه، أصبح مسؤولاً عن مرافقة مجموعات تعمل في ظروف خطيرة.

كان يرى آثار الحرب والدمار، ويشاهد المدنيين الذين ينتظرون وصول المساعدات.

لكن إحدى المهمات التي شارك فيها شرق مدينة الباب في ريف حلب تحولت إلى تجربة لن ينساها طوال حياته.

الفصل السادس: ثلاثة أيام تحت الحصار

في إحدى مهمات توزيع المساعدات شرق مدينة الباب، كانت المجموعة تتكون من خمسة عشر شاباً.

خرجوا لتنفيذ مهمتهم، لكنهم وجدوا أنفسهم محاصرين من قبل تنظيم داعش.

لم يعد بإمكانهم التحرك بحرية، وأصبحوا تحت نيران القصف والاشتباكات.

ثلاثة أيام كاملة.

ثلاثة أيام لم يعرف فيها أحد منهم إن كان سيخرج من المكان حياً.

خلال النهار، كان القصف يأتي من السماء.

وكانت الطائرات الروسية تشارك في الضربات التي استهدفت المنطقة.

أما الليل، فلم يكن يعني الأمان.

كانت نيران تنظيم داعش تصل إليهم أيضاً.

كانوا محاصرين بين جبهتين، والذخيرة التي معهم محدودة.

خمسة عشر شاباً في منطقة محاصرة، لا يملكون من الخيارات ما يسمح لهم بالتصرف بحرية.
ثلاثة أيام من الخوف والترقب.
ثلاثة أيام أصبح فيها البقاء على قيد الحياة هو الهدف الوحيد.
وفي النهاية، تدخل الجيش التركي بالطيران، وتمكنت المجموعة من الخروج من الحصار.
لكن النجاة من الحصار لم تعنِ أن الخطر انتهى.
خلال تلك المرحلة، تعرض الشاب للإصابة في كتفه أثناء النهار.
كانت إصابة خطيرة، وبقي ينزف طوال يوم كامل.
لم تكن الظروف تسمح له بالحصول على المساعدة الطبية التي يحتاجها فوراً.
وفي الوقت نفسه، كانت السيارات التي ترافق المجموعة تتعرض للقصف.
تعرضت سيارات المجموعة لصاروخين من نوع كورنيت.
وانفجرت السيارات.
قُتل ثمانية من الشباب الذين كانوا معه.
ثمانية أشخاص من المجموعة نفسها التي خرجت في البداية لتوزيع المساعدات.
خمسة عشر شاباً خرجوا معاً.
لكن ثمانية منهم لم يعودوا.
في الحرب، لا تحتاج أحياناً إلى سنوات حتى تتغير حياة الإنسان.
قد تحتاج إلى يوم واحد فقط.
ثمانية أشخاص فقدوا حياتهم، وشاب مصاب في كتفه يحاول النجاة بعد أن رأى الموت يقترب منه أكثر من مرة.
بعد تلقي العلاج، قرر العودة إلى إدلب.
لكنه لم يكن يعرف أن خسارات أخرى تنتظره.

الفصل السابع: فقدان الأخ والأم - عندما لم تعد الحرب تأخذ من الإنسان أصدقاءه فقط

عاد إلى إدلب بعد تلقي العلاج.
كان قد خرج من الحصار حياً، لكنه لم يعد الشخص نفسه الذي دخل إليه.
إصابته في كتفه كانت تذكرة بما حدث، والأسماء التي فقدها بقيت معه.
ثمانية من رفاقه قُتلوا.
ثمانية أشخاص كانوا معه في المهمة نفسها، ولم يعد بإمكانه رؤيتهم مرة أخرى.
لكن الخسارة الأكبر كانت في عائلته.
فالحرب لم تأخذ منه رفاقه فقط.
لقد أخذت منه أخاه أيضاً.
استشهد أخوه في سوريا قبل مغادرته البلاد.
ثم استشهدت أمه بعد وفاة أخيه.
فقد أخاه أولاً، ثم فقد أمه.
كانت خسارة العائلة أكبر من أن يستطيع إنسان في ذلك العمر استيعابها بسهولة.
لم يعد السؤال بالنسبة إليه: كيف ستكون حياتي في المستقبل؟
بل أصبح السؤال أبسط وأقسى:
هل يوجد مكان يمكنني أن أعيش فيه دون أن أفقد شخصاً آخر؟
لقد رأى الحرب، وأصيب فيها، وخسر أشخاصاً كانوا معه، ثم فقد أقرب الناس إليه.
وبدأت فكرة المغادرة تتحول من احتمال إلى قرار.
لم يكن يعرف إلى أين سيذهب.
لكنه كان يعرف أنه لا يستطيع الاستمرار بالطريقة نفسها.

الفصل الثامن: الهروب من سوريا - الجدار الذي يفصل بين الخوف والأمل

بعد فقدان أخيه وأمه، قرر محاولة الخروج من سوريا والتوجه إلى تركيا.
لكن الحدود لم تكن مفتوحة.
كانت تركيا قد بنت جداراً حدودياً مرتفعاً يصل ارتفاعه إلى نحو خمسة أمتار في المنطقة التي حاول العبور منها، مع أبراج مراقبة وحراسة وأسلاك شائكة.
كان الوصول إلى الطرف الآخر يعني الخروج من منطقة الحرب، لكنه لم يكن أمراً سهلاً.
انضم إلى مجموعة من الأشخاص، وكان هناك مهرب وعدهم بإيجاد طريق للعبور.
كان الطريق الذي اختاروه غير تقليدي.
كان عليهم الوصول إلى مجرى لتصريف المياه يمر أسفل الجدار.
كان ضيقاً، ولا يسمح بالمرور إلا بالزحف.
ولمدة ثلاثة أيام، عملوا بمنشار حديد يدوي.
لم يكن بإمكانهم استخدام أدوات كهربائية، لأن صوتها قد يكشف مكانهم.
وكانوا يسمعون فوقهم أصوات الجنود، وحركة الآليات العسكرية، وأصوات الدبابات.
كانوا يعرفون أن اكتشافهم قد يعني إطلاق النار عليهم.
ثلاثة أيام وهم يعملون في مكان ضيق، وكل صوت من الأعلى يجعلهم يتوقفون وينتظرون.
لم يكن أحد منهم يعرف إن كان سيكمل الطريق أم ستنتهي رحلته هناك.
وكانوا يعرفون أن كثيرين لم يصلوا حتى إلى الجدار.
بعد العبور، لم تنتهِ المحنة.
بقوا ثلاثة أيام أخرى في منطقة زراعية، يختبئون ويتحركون بحذر.
كانوا ينتظرون الفترات التي تقل فيها حركة المراقبة، ويتحركون عندما تتاح لهم الفرصة.
وصلوا أخيراً إلى مزرعة للأبقار، واختبأوا فيها.
بعد كل ذلك، أصبح داخل تركيا.

لكن الوصول إلى تركيا لم يكن نهاية الرحلة.
بل كان بداية مرحلة جديدة استمرت أربع سنوات.

الفصل التاسع: أربع سنوات في تركيا

قضى في تركيا أربع سنوات.
أربع سنوات حاول خلالها أن يعيد ترتيب حياته.
تعلم اللغة التركية، وعمل وجمع المال، وبدأ يفكر في مستقبله.
كان يعرف أن تركيا ليست الوجهة التي يريد أن يستقر فيها.
وكان يفكر في الوصول إلى أوروبا.
لم يكن القرار سهلاً.
فهو لم يكن يجهل مخاطر الطرق التي تنتظره.
لقد عاش الحرب، وعرف معنى أن يكون الموت قريباً.
لكنه كان يبحث عن مكان يستطيع فيه أن يبدأ من جديد.
وفي عام 2021، قرر أن يحاول.
لم يكن وحده هذه المرة.
كان ابن عمه معه.
وكان الاثنان يخططان للخروج معاً.
لم يكن يعرفان أن الطريق القادم سيجعلهما يختبران حدود قدرتهما على التحمل.

الفصل العاشر: ثلاثة عشر يوماً في الجبال – المحاولة الأولى

كانت المحاولة الأولى في عام 2021.
انطلق مع ابن عمه من منطقة علي بيه في تركيا، باتجاه أريانا في اليونان.
ثلاثة عشر يوماً من المشي.

ثلاثة عشر يوماً بين الجبال والطرق الوعرة.
وكانت معهم عائلة لديها طفل صغير.
تخيل أن تسير كل هذه المسافة وأنت لا تعرف أين ستنام في الليلة التالية، ولا متى ستأكل، ولا إن كنت ستصل إلى نقطة اللقاء المتفق عليها.
كان الطريق طويلاً.
والطعام بدأ ينفد.
وكانت هناك سيارة يفترض أن تصل إليهم في نقطة محددة، لتأخذهم إلى المرحلة التالية.
لكن السيارة لم تصل.
ثم ظهر الجيش اليوناني.
أُلقي القبض عليهم، وأُعيدوا إلى تركيا.
لم تكن العودة مجرد رجوع إلى نقطة البداية.
فبحسب تجربته، جُرّدوا من أغراضهم، وحتى الأحذية أُخذت منهم.
عادوا إلى تركيا وهم يحملون تعب ثلاثة عشر يوماً، والجوع والبرد الذي عاشوه في الجبال.
ثلاثة عشر يوماً من المشي، وانتهت المحاولة بالعودة.
لكن بالنسبة إليه ولابن عمه، لم تكن هذه نهاية الطريق.
جلس الاثنان يفكران في طريقة أخرى.
هذه المرة، قررا محاولة العبور داخل شاحنات النقل.

الفصل الحادي عشر: أربعة أيام داخل شاحنة

بعد فشل المحاولة الأولى، بدأ هو وابن عمه بالتفكير في طريق آخر.
قضيا أسبوعاً في التخطيط والبحث.
كانا يحاولان فهم الطريق إلى معبر الشاحنات، ومراقبة طبيعة المكان.
وكانت لغتهما التركية الجيدة تمنحهما بعض القدرة على التواصل مع الناس في تركيا.

وفي النهاية، قررا محاولة الاختباء داخل شاحنة متجهة إلى أوروبا.
كانا يعرفان أن هذه الفكرة تحمل خطراً كبيراً.
فالمقطورة مساحة مغلقة، ولا توجد ضمانات للتهوية أو الطعام أو الماء، كما أن التفتيش قد يحدث في أي لحظة.
لكن القرار اتُّخذ.
في تلك الليلة، كان معهما بعض الأدوات البسيطة التي اعتقدا أنها قد تساعدهما على التعامل مع غطاء المقطورة بعد الدخول.
وصلا إلى المكان الذي خططا له.
وعثرا على شاحنة قريبة من الجدار.
تمكنا من الوصول إلى المقطورة، ثم اختبآ في الداخل.
كانت هناك لحظة أخرى لا تقل صعوبة عن كل ما سبق:
إعادة الغطاء إلى حالته السابقة حتى لا يكون واضحاً أن أحداً دخل إلى الشاحنة.
بدأ العمل في الساعة الرابعة فجراً تقريباً، واستمر حتى الخامسة.
ثم انتظرا.
في الصباح، تحركت الشاحنة إلى الميزان.
وعند الساعة السابعة والنصف، دخلت إلى إجراءات المعبر الرسمية.
مرت الشاحنة.
وبالنسبة إليهما، كانت هذه أول لحظة يشعران فيها أن الخطة نجحت.
لكن ما كان ينتظرهما داخل المقطورة كان أصعب مما تخيلا.
أربعة أيام كاملة.
أربعة أيام في مساحة ضيقة جداً.
لم يكن بإمكانهما التحرك بشكل طبيعي.
وكانت أرضية المقطورة غير مريحة، فاضطرا إلى النوم فوق كراتين وأغراض الشحن.

قبل الرحلة بيوم، لم يكونا قد تناولا الطعام بشكل كافٍ.
وخلال الرحلة، اعتمدا على التمر والماء.
حتى استخدام الحمام لم يكن متاحاً لهما كما هو متاح لأي شخص في حياته اليومية.
كانا يحاولان تقليل الحركة والاحتياجات قدر الإمكان.
أربعة أيام.
لا يعرفان متى ستتوقف الشاحنة.
ولا متى ستُفتح المقطورة.
ولا إن كان أحد سيكتشف وجودهما.
في الخارج، كانت الحياة تسير بشكل طبيعي.
الناس يسافرون، والشاحنات تنقل البضائع، والطرق تربط الدول ببعضها.
أما في الداخل، فكان هناك شخصان يحاولان فقط الوصول إلى اليوم التالي.
وبعد أربعة أيام، وصلت الشاحنة إلى كوسوفو.
وتوقفت داخل مستودع.
خرج الشاب من المقطورة بعد عبور إجراءات التخليص الجمركي.
رآه صاحب الشاحنة.
وحاول تخويفهما، وشعر الشاب أن الرجل قد يحاول استغلال وضعهما للحصول على المال.
لكنه واجهه وأخبره بأنه سيبلغ الشرطة بما حدث إذا حاول إيذاءهما أو ابتزازهما.
وبعد ذلك، غادر الاثنان المكان.
لقد وصلا إلى كوسوفو.
لكن الطريق إلى ألمانيا كان لا يزال طويلاً.

الفصل الثاني عشر: كوسوفو وبلغراد – النجاة من مداهمة الفندق

لم يمكثا في كوسوفو سوى ثلاثة أيام.

بعدها، قررا التوجه إلى صربيا.
عبرا الحدود سيراً على الأقدام، ثم وصلا إلى وسيلة نقل أخذتهما إلى بلغراد.
كانا قد قطعا مسافة طويلة، وأصبح التعب واضحاً عليهما.
في بلغراد، بحثا عن مكان للنوم.
وصلا إلى فندق مشترك، من تلك الأماكن التي تضم غرفاً كبيرة، ينام فيها عدد من الأشخاص، وكل غرفة تجمع غرباء من جنسيات مختلفة.
كان هناك مهاجرون من دول عديدة.
حصل كل واحد منهما على غرفة مختلفة.
نام ابن عمه في غرفة أخرى، بينما بقي هو في غرفته.
لكن ما حدث في تلك الليلة لم يكن متوقعاً.
وصلت الشرطة إلى الفندق بعد إبلاغها عن الموجودين فيه.
دخل عناصر الشرطة إلى الغرف، وبدأوا بتوقيف الأشخاص.
كان الشاب يحمل جواز سفر سورياً فقط.
وكان يعرف أن ظهور وضعه القانوني قد يعرّضه للاحتجاز.
عندما وصل الشرطي إلى غرفته، سأله إن كان يحمل جواز سفر.
أجابه بأنه يحمل جواز سفر.
لكن قبل أن يتمكن الشرطي من التحقق منه، حدثت مشكلة في غرفة ابن عمه.
تحركت الشرطة بسرعة إلى هناك.
وفي تلك اللحظات، بقي الشاب في سريره، في مكان مرتفع داخل الغرفة، ولم يُنتبه إليه.
انتظر حتى الصباح.
عندما استيقظ قرابة العاشرة والنصف، اكتشف أن الشرطة أخذت معظم الموجودين.
وبعد التفكير فيما حدث، اشتبه بأن صاحب الفندق هو من أبلغ الشرطة.
كان يشعر بأن البقاء في المكان لم يعد آمناً.

لم يغادر الفندق بشكل يلفت الانتباه.
تخلص من الحقيبة التي كانت معه، وغيّر ملابسه، ثم خرج إلى الشارع.
اشترى بيتزا ومشروباً، وحاول أن يبدو مثل أي شخص يقضي يومه بشكل طبيعي.
كان متجهاً نحو محطة الحافلات.
وفي الطريق، لمح عناصر الشرطة يقتربون منه.
كانت المسافة بينهم تتناقص.
لكنه لاحظ أنهم تلقوا نداءً وتحركوا بسرعة إلى اتجاه آخر.
انتظر لحظة، ثم تابع طريقه.
وعندما اقترب من محطة الحافلات، شاهد الشرطة وقد أوقفت سبعة شبان آخرين.
كان قد نجا مرة أخرى.
دخل المحطة، واستقل حافلة إلى سوبوتيتسا، المدينة الواقعة شمال صربيا قرب الحدود المجرية.
وبعد ساعات، اتصل به ابن عمه.
كان قد تمكن هو الآخر من الهروب من الشرطة.
واتفقا على اللقاء مجدداً.
بعد ثلاث ساعات، كانا معاً مرة أخرى.
لكن لم يكن أمامهما وقت طويل للاحتفال بالنجاة.
فقد كانت هناك حدود أخرى تنتظرهما.

الفصل الثالث عشر: الجدار الحديدي والكلاب

في سوبوتيتسا، قررا محاولة عبور الحدود مع مجموعة أخرى.
كانت الحدود محمية بسياج حديدي، وكانت هناك وسائل إنذار ومراقبة.
بدأت المجموعة بالعبور.

وكان هو آخر شخص في المجموعة.
وفي اللحظة التي كان يحاول فيها النزول من السياج، اكتُشف وجودهم.
بدأ الإنذار.
وتحوّل المكان خلال ثوانٍ إلى حالة من الفوضى.
كان الخوف قد سيطر عليه.
لم يتمكن من النزول بطريقة طبيعية، فقفز من ارتفاع كبير.
سقط وأصيب في قدمه.
لكن رغم الإصابة، ركض.
دخل الغابة واختبأ حتى المساء.
كان الألم شديداً، لكنه كان يعرف أن البقاء في المكان قد يعني القبض عليه.
تابع المشي مع المجموعة.
قطعوا قرابة عشرة كيلومترات داخل الغابات.
ثم ظهر أمامهم عناصر الشرطة، وكان معهم كلاب.
تمكنت الشرطة من القبض عليهم.
وبحسب روايته، تعرض أفراد المجموعة للضرب بالعصي.
أما هو، فقد حاول الاختباء أكثر من مرة بسبب الألم والخوف.
وعندما أُلقي القبض عليه، فُصل عن الآخرين، وتعرض للضرب أكثر منهم.
لم يتوقف ذلك إلا عندما وصلوا إلى مكان وجود وسائل الإعلام والكاميرات.
عندها تغير تعامل العناصر معه.
أُعيدوا إلى صربيا.
لكن صربيا لم تعد تستقبل العائدين بالطريقة نفسها، بسبب الخلاف المتعلق بإعادة المهاجرين إلى المجر والاتفاقات الحدودية بين البلدين.
وجد نفسه عالقاً مرة أخرى.

برد.

تعب.

إصابة في القدم.

ولا مكان يستطيع فيه أن يرتاح بشكل حقيقي.

قضى ليلة كاملة في البرد، ثم بقي في صربيا عشرة أيام تقريباً.

كانت قدمه تؤلمه بشدة.

حاول الذهاب إلى المستشفى، لكنه كان يُطلب منه المغادرة بسبب عدم امتلاكه إقامة أو أوراقاً تخوله الحصول على العلاج بالطريقة المعتادة.

عشرة أيام لم تكن مجرد انتظار.

كانت أياماً يحاول خلالها أن يستعيد قدرته على المشي.

وكان عليه في الوقت نفسه أن يفكر في المحاولة التالية.

لم يكن يريد العودة إلى تركيا.

ولم يكن يريد أن تبدأ الرحلة من جديد من الصفر.

وبدأ يسمع عن طريق آخر، يمر عبر رومانيا.

وبدأ يجمع المعلومات عنه.

الفصل الرابع عشر: المحاولة الأخيرة – الطريق عبر الأراضي المفتوحة

بعد عشرة أيام من الألم والانتظار، بدأ يستعد لمحاولة جديدة.

هذه المرة، لم يكن الطريق يعتمد على جدار مرتفع.

كانت هناك أراضٍ مفتوحة، ومساحات زراعية واسعة، وخنادق صغيرة، وأعشاب لا يتجاوز ارتفاعها تقريباً أربعين إلى خمسين سنتيمتراً.

كان المكان مكشوفاً لمسافات طويلة.

ولم يكن الاختباء فيه سهلاً.

حاول أكثر من مرة، لكن المحاولات لم تنجح.
ثم، مع الوقت، أصبح يعرف طبيعة المنطقة بشكل أفضل.
وفي النهاية، قرر هو وابن عمه المحاولة مجدداً.
كانا قد عرفا أن هناك وقتاً مبكراً من الصباح يتغير فيه وجود عناصر الحراسة.
وفي اليوم الذي قررا فيه المحاولة، تحركا في ذلك الوقت.
وعندما اجتمع أفراد الحراسة في مكان واحد، ركضا لمسافة طويلة.
كانا يركضان أحياناً، ويتوقفان للاختباء أحياناً أخرى.
قطعا نحو ثمانية كيلومترات بين الركض والاختباء، حتى وصلا إلى منطقة مليئة بالمياه والقصب.
كان عليهما متابعة الطريق عبر أرض موحلة ومياه باردة.
لم تكن أجسادهما قد تعافت تماماً من المحاولات السابقة.
لكنهما تابعا حتى دخلا المجر.
لم يكن ذلك يعني أن الخطر انتهى.
كان عليهما الوصول إلى مدينة سيغيد، القريبة من الحدود.
وبعد ساعات من المشي، اقتربا من المدينة.
كان الشاب قد بدأ يفكر في كل تفصيل يتعلق بمظهره وتصرفاته.
أخذ معه مناديل مبللة، ليتمكن من تنظيف نفسه قدر الإمكان.
وكان قد حوّل بعض المال إلى العملة المحلية، حتى لا يبدو غريباً عندما يحتاج إلى استخدام وسائل النقل.
كان يحمل ستة وأربعين ألف فورنت مجري.
وفي الساعة السادسة والنصف صباحاً تقريباً، اتجه إلى محطة القطار.
اشترى تذكرتين إلى بودابست.
ثم استقل القطار.

كان هذا أول انتقال له داخل المجر بوسيلة نقل عامة بعد رحلة الحدود.
وصل إلى بودابست.
لكن حتى هناك، لم يكن يشعر بالأمان الكامل.
انتقل بسيارة أجرة إلى محطة القطارات الرئيسية.
وعندما وصل، لاحظ وجود الشرطة عند المدخل.
لم يدخل من المكان الذي كان يراقبه.
وبعدها تمكن من الوصول إلى المحطة، واشترى تذكرتين إلى فيينا في النمسا.
كان يعرف أن كل محطة جديدة تحمل احتمالاً جديداً للاحتجاز.
لكنه هذه المرة كان يقترب من نهاية الطريق.

الفصل الخامس عشر: فيينا ثم ألمانيا – الوصول بعد سنوات من الخوف

غادر بودابست باتجاه فيينا.
وكانت تلك الرحلة مختلفة عن كل ما سبقها.
لم يكن داخل شاحنة.
لم يكن يختبئ في غابة.
لم يكن يركض هرباً من الشرطة.
كان جالساً في قطار، يرى المدن والحقول تمر خلف النافذة.
ربما لم يكن قادراً على استيعاب ما يحدث.
فمنذ سنوات، كان يحاول الوصول إلى مكان يستطيع فيه أن يعيش دون خوف.
واليوم، كان قد تجاوز حدوداً كثيرة.
سوريا.
تركيا.
اليونان.

كوسوفو.

صربيا.

المجر.

النمسا.

ثم جاءت ألمانيا.

في نوفمبر عام 2021، وصل أخيراً إلى ألمانيا.

كانت الرحلة قد انتهت من الناحية الجغرافية.

لكنه كان يحمل معه سنوات من التجارب التي لا تنتهي بمجرد الوصول إلى بلد جديد.

سنوات من الحرب.

وثلاثة عشر يوماً في الجبال.

وأربعة أيام داخل شاحنة.

ومطاردات واعتقالات وإعادات عبر الحدود.

وإصابة في القدم.

وجوع وبرد.

وقبل كل ذلك، حرب في سوريا، وكتف أصيب خلال القصف، وثمانية رفاق لم يعودوا، وأخ وأم فقدهما.

لقد وصل.

لكن الوصول لم يكن كافياً لمحو كل ما حدث.

الفصل الأخير: هل تنتهي الرحلة عندما يصل الإنسان؟

اليوم، يعيش في ألمانيا.

أصبح لديه مكان ينام فيه، وشوارع يستطيع السير فيها، وحياة يومية تشبه حياة كثيرين ممن لم يعرفوا الحرب.

يمكنه أن يذهب إلى متجر.
أن يستقل القطار.
أن يجلس في مقهى.
أن يخطط للغد دون أن يضطر إلى التفكير في مكان القصف أو أقرب طريق للهرب.
هذه الأمور التي تبدو عادية للآخرين، كانت بالنسبة إليه أموراً لم يكن يعرف إن كان سيحصل عليها يوماً.
لكن هناك أشياء لا تعود كما كانت.
ثمانية من رفاقه بقوا في سوريا.
أخوه لم يعد.
وأمه لم تعد.
والأيام التي قضاها بين الجبال والحدود والشاحنات لم تختفِ بمجرد وصوله إلى ألمانيا.
ربما عندما يسير اليوم في شارع هادئ، لا يرى الآخرون شيئاً مختلفاً فيه.
لكنهم لا يعرفون ما الذي مر به حتى أصبح قادراً على السير في هذا الشارع.
لا يعرفون ماذا يعني أن تقضي أربعة أيام في شاحنة، أو أن تمشي في البرد وأنت لا تعرف أين ستنام، أو أن تستيقظ وتكتشف أن الأشخاص الذين كانوا معك لم يعودوا موجودين.
كان عمره طفلاً عندما خرج في أول مظاهرة عام 2011.
ثم كبر وسط الحرب والنزوح والخوف.
وفي السابعة عشرة من عمره، كان يعمل في مرافقة قوافل الإغاثة، ويعيش في مناطق يمكن أن يتحول فيها الطريق إلى ساحة موت في أي لحظة.
وبعد ذلك، خسر عائلته، وغادر بلده، وخاض رحلة طويلة حتى وصل إلى ألمانيا.
اليوم، يعيش حياة كان يحلم بها في أحلك لحظات رحلته.
لكن يبقى سؤال لا تستطيع الحدود ولا القطارات ولا المسافات الإجابة عنه:

عندما ينجح الإنسان في الهروب من الحرب، ويصل إلى مكان آمن... هل يكون قد نجا فعلاً من الحرب، أم أن بعض الحروب تستمر داخل الإنسان حتى بعد أن تنتهي في الخارج؟

النهاية.